الاشتراكية الثورية وتحرير فلسطين

« بعد كارثة فلسطين حدثت الانقلابات العسكرية فى كثير من البلدان العربية .. وكان المفروض أن يتولى هذا الحكم العسكرى إنقاذ فلسطين إلا أن الذى حدث هو غير ذلك .. فإن قضية فلسطين فى زمن الحكم العسكرى قد تعقدت أكثر من ذى قبل ، وأن العرب قد بعدوا عن حقهم أضعاف ما كانوا بعيدين عنه فى عهود الحكم المدنى ، وأن قضية فلسطين قد تضاءلت فى عقول العرب ونفوسهم ، ولم يعد الجيل الجديد الذى نشأ فى فترة الحكم العسكرى يعبأ بفلسطين أو يعيشها كما كان يعيشها الجيل الذى قبله .. والفرق بين العهدين العسكرى والمدنى هو أن الحكم المدنى كان يستحى أن يعلن عن عجزه فى قضية فلسطين . وكان لا يعلن عجزه حتى لا يفت فى عضد الجيل الجديد يأساً فى نفوس الشعب .. بينما الحكم العسكرى قد أعلن عن عجزه فى إنقاذ فلسطين . ألم يعلن كبير الحكام العسكريين العرب أنه ليس هناك مخطط أو تصميم من أجل فلسطين ، وأنه ليس بالإمكان - على الأقل فى الوقت الحاضر - إنقاذ فلسطين ؟ .. فإذا كان الحاكم العسكرى القوى الذى يحكم ثلاثين مليوناً من العرب يقول هذا القول فما بالك بالدول الصغيرة ؟

إذا كان الحكم العسكرى فى بلاد العرب لم ينقذ فلسطين ولا هو فى طريق إنقاذها ، فما هو المبرر فى استمراره إذا قبلنا مبدئياً وجوده ؟ وهو قد قام مستنداً إلى هذه الدعوة ، دعوة استرداد فلسطين من أيدى الغاصبين ؟

وما دام الحال كذلك فإنه لم يبق سبب من أجل تنازل الشعب عن حريته وديمقراطيته .. لقد ضحى الشعب بحريته وأجاز النظام العسكرى بعض الشىء

من أجل فلسطين .. وهو لا يريد أن يضيع فلسطين وحريته فى آن واحد .. لذلك فإن الشعب السورى قد أصبح يحن حنيناً عنيفاً إلى حياة الديمقراطية وإن لم يعمد إلى الوسائل الصعبة لاسترداد حريته » [١] .

كان هذا هو الجو السائد فى قضية فلسطين حتى الشهور الأولى من سنة ١٩٦٧ ، وفجأة - ولأسباب لا مجال لذكرها الآن - تكهرب الجو ، وأصابت القوم الحمى التى تصيب الثوريين كثيراً ، فإذا العضلات تعرض ، والمؤتمرات تعقد ، والتصريحات النارية تلقى ، والتهديدات بالقاهر والظافر وبأقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط وبتأديب إسرائيل ومَن وراء إسرائيل !

وكتبت جريدة « الجمهورية » القاهرية فى ٢١ مايو ١٩٦٧ تقول بكل ثقة :

« فى ساعات قليلة يمكن أن تُسحق إسرائيل ، بغير استخدام كافة أسلحتنا فى المعركة » !!

وفى ٢ يونية ١٩٦٧ - أى قبل الكارثة بثلاثة أيام - كتب هيكل يقول :

« مهما يكن وبدون محاولة لاستباق الحوادث ، فإن إسرائيل مقبلة على عملية انكسار تكاد تكون محققة ، سواء من الداخل أو من الخارج » !!

وقال مسئول كبير فى مصر لوزير الحربية « شمس بدران » قبيل العدوان :

- اسمع يا شمس ، هل وضعت فى حسابك احتمال تدخل الأسطول السادس ؟

- طبعاً .

- يعنى إذا تدخّل حاتعمل إيه ؟

- اطمئن ، أول طلقة يطلقها أبطّطه !! [٢] .

وانطلقت الأناشيد الحماسية تقول فيما تقول : ومدفعنا يتحدى القدر !!

---

(١) من بيان للأستاذ جلال السيد أحد مؤسسى حزب البعث ، ثم أحد كبار المنسحبين منه بعد ذلك . (دمشق - أيلول ١٩٦٥) .

(٢) عن جريدة « الأنوار » البيروتية فى ١٩٦٧/٩/٨

أى لا يكتفى بتحدى مدرعات إسرائيل فى البر ، وطائراتها فى الجو ، بل يتحدى فوق ذلك كله القدر !

وجاء الخامس من حزيران (يونية) ١٩٦٧ ، فلم يجد الشعب العربى وراء الجعجعة طحْناً ، ولم ير وراء الزئير ليثاً ! وتبخرت كل التهديدات والتصريحات ، وتبددت كل الأمانى والأحلام ! وبات العرب والمسلمون فى العالم كله ناكسى الرؤوس ، دامعى العيون ، من ذل الهزيمة ، وعار الفرار !

ولقد كانت فى الواقع أكثر من هزيمة .. إنها نكبة ، إنها كارثة ، إنها إنهيار . وأشد ما يؤلم الكريم فى هذه الكارثة : أنها جاءت بعد ذلك الجو الهادر الزائر الصاخب الذى وصفنا بعض ملامحه ، وجاءت بعد تسعة عشر عاماً فى التأهب ليوم الثأر ، وغسل العار .

ولكن - والأسى يمزق قلوبنا - لم تغسل لطخة العار القديمة فى جبيننا ، بل أضفنا إليها لطخة جديدة .

لقد كانت الخسائر جسيمة ومفجعة لدى العرب ، بقدر ما كان الكسب كبيراً وهائلاً لدى إسرائيل ، وهو كسب جاءها ورداً بلا شوك يعوقه ، وشهداً بلا نحل يمنعه .

يقدِّر الرئيس المصرى الراحل خسائر الجانب المصرى وحده بعد المعركة وإن شئت قل بعد الانسحاب بما يأتى :

١٠٠٠٠ جندى قتلى .

١٥٠٠ ضابط قتلى .

٥٠٠٠ جندى أسرى .

٥٠٠ ضابط أسرى .

٨٠٪ من معدات القوات المسلحة .

ويقول : كنا مكشوفين أمام العدو .. جبهة القتال مكشوفة .. ما كنش

عندنا خط دفاعى غرب القنال ، والمدن مكشوفة ، ما كنش عندنا طيارات خالص ، بنجابه بها طيران العدو لو أراد أن يعتدى على مدننا بعد الكارثة التى حلّت بالطيران » !!

* *

● الثوريون يحملون تبعة هزيمة ١٩٦٧ :

مَن المسئول عن هذه الهزيمة المروعة ؟

إن المسئول - فى الدرجة الأولى - هو الأنظمة الثورية العربية ، التى قادت المعركة وأجّجت نارها ، وخاضتها بجيوش فرّغتها من « الروح » وشعوب حُطّمت فيها القيم ، كيف لا وقد رأينا الثوريين مزّقوا الوحدة ، وطاردوا الأخوة ، ووأدوا الحرية ، ونشروا الميوعة ، وقهروا الإيمان ، وبلبلوا الفكر ، وعطلوا العقل ، واكتفوا بالتهويل والشعارات !

ولست أنا الذى أقول هذا . بل يقوله كثير من الثوريين بعد أن هزّتهم النكبة أو النكسة هزاً - إلى حين - جعلهم يعترفون بكثير من الحق ، ويحتجون على كثير من الباطل : باطل الثوريين أنفسهم .

لقد قال عبد الناصر عن نفسه فى خطاب التنحى المشهور فى ٩ يونيه ١٩٦٧ : إنه المسئول عما حلّ بمصر من دمار وعار .. وعلى أساس هذا قرر التخلى عن المسئولية .

وكتب هيكل وجنبلاط وصلاح البيطار وغيرهم من الثوريين يكشفون بصراحة عن قصور الثورية العربية وعجزها عن القيام بواجبها فى المعركة المصيرية .. وسنعود إلى كتاباتهم حين نبحث عن أسباب الهزيمة .

* *

● القُوَى اليسارية تُحمِّل البعث السورى تبعة الهزيمة :

النظام الوحيد الذى استقبل الهزيمة بصفاقة وتبجح وعدم اكتراث ، وفقدان أى شعور بالمسئولية ، هو نظام حكم البعث السورى ، الذى أعلن أن إسرائيل لم تنتصر ، وأن عدوانها قد فشل ، لأنها كانت تريد إسقاط الأنظمة الثورية التقدمية ، ولم تفعل ! فلا هزيمة إذن للعرب ، ولا نصر لإسرائيل !

ولكن كل القُوَى ، حتى اليسارية نفسها - ردّت عليها هذا المنطق الأعوج السفيه ، وحمّلتها عار الهزيمة النكراء ، وتسليم الجولان بغير قتال ، وإعلان سقوط القنيطرة قبل أن تسقط.

فى عام ١٩٦٨ أصدر القوميون العرب بياناً قالوا فيه :

« منذ اليوم الأول للهزيمة العسكرية بدأت أوساط الحكم تعلن أن الهدف الأساسى للعدوان هو إسقاط نظام الحكم الثورى فى دمشق .. ومن هذه الفرضية الهزيلة وصل الحكم إلى سلسلة من القناعات أهمها :

١ - ما دام القصد الأساسى هو إسقاط نظام الحكم فى سوريا فإن العدوان قد فشل فى تحقيق مراميه ، وبالتالى فإن ما قدّمه البعث لهذه الأمة يتمثل فى مقدرته على الحفاظ على نفسه .. بهذا المعنى فإنه قد حقق انتصاراً ضخماً .

٢ - ما دام القصد إسقاط البعث الحاكم ، فإن أى محاولة تستهدف إذابة البعث فى مجموعه هى خطوة إلى الخلف ترضى إسرائيل .

من السخافة أن نناقش هذا المنطق ، فهو يدحض نفسه بنفسه ، ويظهر ما يخفيه من مقاصد وتحليلات ذاتية .

غير أن المواطن لا يستطيع إلا أن يتساءل بسخرية : أفلا تخاف إسرائيل أكثر لو كان الحكم أكثر تقدمية وأكثر ثورية ؟ [١] هل يزعج إسرائيل أن يكون

---

(١) أقول : بل ستزداد اطمئناناً وأمناً ، بما عندها من معرفة عميقة وخبرة طويلة بالأنظمة التقدمية الثورية !!

الحكم فى سوريا بعيداً عن الجماهير أم موثوقاً منها ؟ والشعب قريباً من الحكم ملتفاً حوله أم بعيداً عنه يناصبه العداء ؟ .. إننا نعتقد أن إسرائيل تعلم حقيقة الهوة التى تفصل بين هذا الحكم والجماهير ، ونعتقد أن إسرائيل لا تكره حكماً ضعيفاً معزولاً .

« ووجدت الفئات التقدمية نفسها وجهاً لوجه مع واقع سوريا المحزن ، سوريا التى يعلق عليها العرب الآمال الكبار فى محو آثار العدوان وتصفية الوجود الصهيونى والتصدى للاستعمار .

١ - شعب مزّقته الأحقاد وأكلته التكتلات الطائفية والعنصرية التى غذّاها البعث منذ استلامه السُلطة عام ١٩٦٣ حتى أضحت اليوم ركيزة أساسية من مرتكزات حكمه ، إن شعباً يمثل هذه الصورة من التمزق يصعب عليه أن يواجه تحديات بمستوى التحديات التى تواجه شعبنا العربى ، فالشرط الأساسى لأى عملية مجابهة خارجية هى انصهار وطنى ، وحدة وطنية جامعة ، اندماج قومى كامل ، لا يستثنى من هذه الوحدة إلا عملاء الاستعمار وأذنابه .

٢ - جماهير بعيدة ، بل مبعدة ، عن الاشتراك جدياً فى تقرير مصيرها وممارسة حريتها بعيداً عن تسلط الأجهزة وحزب الوصاية والقهر .

٣ - مؤسسة عسكرية نجح البعث فى تمزيق انضباطها ، وضرب الكفاءة الفتية لقيادتها ، لقد تمزقت الحُجُب الواهية والمفاهيم البالية التى تستّر بها كل مَن أخفى تآمره وتقاعسه عن الشعب .. وعلّمتنا فضائح قادة الطيران وفضائح سقوط القنيطرة والجبهة السورية ، أن لا سر عسكرى إلا تحت ظل قيادة عسكرية موثوقة ، والثقة لن تعود ما دام الحساب لم يقع والجبناء والخونة لم يلقوا جزاءً عادلاً بعد ، إن الإصرار إعلامياً على أن مأساة يوم ٥ (حزيران) هى عملية انسحاب ، لا يجدى فى إقناع الناس أن ما رأوه لم يكن هزيمة نكراء أصيب بها جيشنا ، والإصرار على إنكار الهزيمة لا يساعد أبداً على إعادة الثقة إلى المواطنين الذين عاشوا الهزيمة بمرارة قاتلة » .

* *

وبمناسبة ذكرى الجلاء فى سوريا أصدرت قيادة البعث القومية بياناً فى بيروت - ١٧ إبريل ١٩٦٨ :

● القيادة القومية تطلب محاكمة البعثيين القطريين :

« إن قوى الشعب المناضلة فى القطر العربى السورى لن تكون قادرة على الإسهام الفعّال بإزالة آثار العدوان ومجابهة إسرائيل فى ظل الحكام الحاليين طالما أنهم لم يحاربوا وقت الحرب ، بل هربوا من المعركة ، وتخلوا عن الدفاع عن أرض الوطن لحماية حكمهم الثورى الراهن ، وطالما أنهم ما انفكوا إلى يومنا هذا يُسرِّحون ضباط الجيش ويرهبون الشعب ويفتتون قواه الوطنية ، ويغذون النعرات الطائفية ويلاحقون المناضلين الأحرار ويزجون بالألوف منهم فى السجون والمعتقلات ويمارسون معهم أبشع وسائل التنكيل والتعذيب ، فكل ذلك يجرى على أيديهم خلال الوقت الذى نحن أحوج ما نكون فيه إلى الجندى العادى ، فضلاً عن الضابط المدرّب ، وإلى تكتيل كل القُوَى وتعبئتها لا تفتيتها وضربها ، وإلى إطلاق فعالية الجماهير النضالية ، لا كبتها وإرهابها .. ومن هنا فإن النضال فى سبيل الخلاص من هؤلاء الحكام هو فى حقيقته جزء من النضال فى سبيل الحرية والديمقراطية الشعبية ولتحقيق خطوات وحدوية مماثلة كميثاق ١٧ (نيسان) .. وبعيدة عن أساليب المزايدة وأغراض الكسب الدعائى الرخيص .. وليكن شعارنا فى هذه المرحلة :

١ - محاكمة المسئولين عن هزيمة « حزيران » المنكرة وعن تسليم القنيطرة والجبهة السورية الحصينة بلا قتال .

٢ - إطلاق حرية العمل الشعبى وإلغاء قوانين الطوارىء والمحاكم الاستثنائية وأساليب الاعتقال الكيفى ووسائل التعذيب والإرهاب ومنع تدخل المخابرات العسكرية فى شئون المواطنين وإقامة ديمقراطية شعبية حقة .

٣ - إعادة الضباط المسرّحين إلى الجيش وجعل الجيش جيشاً وطنياً قادراً

على مواجهة مسئولياته الوطنية والقومية وتقوية انضباطه وتدريبه ورفع مستواه الفنى .

٤ - تحقيق الوحدة الوطنية فى ظل الجبهة القومية الشعبية وتعبئة قُوَى الشعب تعبئة كاملة لمحو عار الهزيمة ومجابهة خطر إسرائيل والاستعمار الجديد » .

*

وأصدرت « الجبهة الوطنية للقوى التقدمية » [١] فى سوريا فى ١٥ مايو ١٩٦٨ ميثاقاً وطنياً جاء فيه :

« إن السياسة التى اتبعها الحكم السورى تجاه قضية فلسطين ، وبخاصة قبيل الحرب ، كانت مثالاً صارخاً على الأسباب المدمرة فى مواجهتها . فلقد كان التعارض كاملاً بين الشعارات التى طرحها هذا الحكم فى مباشرة حرب التحرير ، وفى الحرب الشعبية ، وبين طبيعة هذا الحكم وعزلته عن الشعب وبُعده عن أى إعداد فعلى وحقيقى . إن ذلك الحكم كان يستنفر ويتحرش الحرب ولكنه بموازاة ذلك ماذا كانت إعداداته لمواجهة احتمالات اندلاع الحرب ؟

مزيد من عمليات تصفية الكفاءات العسكرية ، وإضعاف الروح القتالية للجيش ، والتسريحات الجَماعية للضباط ، بدلاً من حشد الطاقات والكفاءات والقُوَى لمواجهة العدو .

الإصرار على التسلط والتفرد فى الحكم والرفض لإقامة أى شكل من أشكال الوحدة الوطنية لتعبئة طاقات الشعب للصمود والكفاح .

---

(١) تشكلت هذه الجبهة فى سوريا فى شتاء ١٩٦٨ ، من الكتل السياسية التالية :

١ - الحزب العربى الاشتراكى الديمقراطى (جماعة أكرم الحورانى) .

٢ - الاتحاد الاشتراكى العربى .

٣ - حركة القوميين العرب .

ثم انضمت إليهم كتلة قيادة البعث القومية (أنصار أمين الحافظ) .. ثم لم تلبث أن انفرطت .

وهكذا كان الشعب ممزقاً ومقهوراً عند نشوب الحرب ، وكانت سوريا أشبه بجبهة مشلولة ومفتوحة أمام قوات العدو . واكتفى الجيش بالقيام بمناوشات محدودة على الحدود بواسطة بعض القطعات العسكرية الاحتياطية . ثم ما لبث أن انسحب تاركاً الحدود بغية « حماية الثورة » عند أول هجوم من القوة العسكرية الإسرائيلية .

إن هذا الحكم مسئول عن هزيمة سوريا على الأقل ، وعن سقوط جبهتها فى يد الأعداء من غير قتال جدى ، وعن إبقاء سوريا على الحالة التى نراها من التمزق والعجز .

إن لهزيمة (حزيران) عواملها البعيدة المتعلقة ببنيان الحياة العربية وهيكلها ، والتى يمكن تلخيصها بعاملين رئيسيين هما التخلف والتجزئة . إلا أن لهذه الهزيمة أسبابها المباشرة فى نقاط القصور والفساد والضعف فى بنيان الأنظمة العربية الثورية أو المسماة بالثورية .

إن المعركة التى نشبت لم يكن يعوزها ، من الجانب العربى العتاد والسلاح ، ولم يعوزها استعداد جماهير الشعب العربى كله للكفاح والتضحية ، وإنما أعوزتها القيادات القادرة على توحيد القُوَى وتعبئة الطاقات ، وأعوزتها الخطة الصحيحة فى المواجهة والعمل والاستراتيجية الواضحة .

إن الثغرات الأساسية والمباشرة ، التى نفذت منها الهزيمة ، كانت فى نقائص النظم العربية التى تصدّت للمواجهة ومساوئها . إن تخاذل القيادات العسكرية البيروقراطية وترفها وترهلها وفسادها ، إن إبعاد الجماهير عن المشاركة الجدية وعزلها عن تقرير مصايرها وعن فرض إرادتها على النظم ، كل ذلك جاء ليقرر الهزيمة ويوقع النكسة » .

* *

وهكذا تتحمل الأنظمة الثورية الاشتراكية مسئولية الهزيمة الكبرى التى قصمت ظهر العرب وحنت رؤوسهم وأذلّت أعناقهم منذ ١٩٦٧ حتى اليوم .

ورغم مضى أكثر من أربع سنوات على الهزيمة ، فإن الموقف يزداد سوءاً . إسرائيل تتصرف فى كل الأراضى التى احتلتها تصرف المقيم فيها أبداً . تبنى مستوطنات فى الجولان ، وتقوم بحفريات وتغييرات متواصلة تُغيِّر بها معالم القدس العربية الإسلامية ، وتحوِّل عشرات الألوف من سكان غزة ، عن مساكنهم إلى سيناء ، وتبنى مستعمرات ومساكن فى الأراضى العربية المحتلة .

ونحن ما زلنا نحلم بحل سلمى يأتى عفواً صفواً ، يرد إلينا بجرة قلم ، ما احتله العدو بحد السيف . وكل أملنا وعملنا وتفكيرنا - معشر الثوريين العرب - هو طرد إسرائيل من المناطق الجديدة التى احتلتها ، أى إزالة آثار عدوان ١٩٦٧ ، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فى ٤ يونية ١٩٦٧

معنى هذا أن حوالى ٢٠ سنة من عمر الأمة العربية قد ضاعت كلها هباء . فقد قضتها فى التأهب والاستعداد منذ هزيمة ١٩٤٨ ، ثم تبخّر هذا كله فى ستة أيام أو ست ساعات فى ١٩٦٧ !

* * *